مظاهر التجديد في أغراض الشعر في العصر العباسي:

ابن الحجاج أنموذجا

د. كمال لفنوني
مختبر اللغة والنص
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة القاضي عياض
المغرب

ملخص

تهدف هذه الدراسة إلى الوقوف على بعض ملامح التجديد التي عرفها الشعر العربي في أثناء العصر العباسي على مستوى أغراضه مقتصرة على ثلاثة منها: هي الهجاء والرثاء والمدح، وذلك من خلال دراسة نماذج وأمثلة من شعر ابن الحجاج النيلي البغدادي (ت391 هـ) دراسة وصفية تحليلية تروم إبراز مدى إسهام الشاعر في هذا التجديد الذي نتج تبعا لتغير الأوضاع الاجتماعية والثقافية والسياسية التي شهده هذا العصر على عهد بني بويه، وبيان كيف قلب ابن الحجاج تلك الأغراض؟ وكيف سخر من الصورة النمطية التي ترسخت عليها؟ وكيف مضى يجدد في موضوعاتها وطرائق صياغتها بما يلائم تردي القيم والأحاسيس في ظل مجتمع متفسخ وفاسد؟

مقدمة

إن التغير الذي شهدته الأوضاع الاجتماعية والثقافية والسياسية في أثناء العصر العباسي الثاني على عهد بني بويه صاحبه تغير واضح في الشعر العباسي من حيث بنية القصيدة والأوزان والقوافي وبحور الشعر وألفاظه ومعانيه وأغراضه، فإلى جانب الشعراء الذين أبقوا الشعر العربي على شخصيته المعهودة ومضوا يدعمونه بما يتلاءم وحياتهم العقلية وذوقهم المرهف، نجد شعراء آخرين مضوا يجددون فيه من جميع أطرافه تجددا ينبني على أساس التفاضل بين الموضوعات الجديدة وصورتها النمطية المعهودة. ومن هؤلاء الشعراء نجد ابن الحجاج الذي عاش في زمن ظهر فيه شعراء التمرد، والتمرد كما يذهب إلى ذلك زهير غازي زاهد ذو ثلاثة أبعاد؛" تنطلق كلها من نقطة واحدة هي رفض الواقع الذي يعيش فيه الشاعر والتقاليد الاجتماعية التي تحيط به، وقد يتعداها إلى الرفض والاحتجاج على الأنظمة التي يعيش فيها، فيتناقض الشاعر ومجتمعه. فأما أحد الأبعاد التي يتخذها التمرد فهو الثورة على التقاليد والأعراف والقيود الاجتماعية بدء من قيود القبيلة لدى الصعاليك إلى قيود النظام الاجتماعي والسياسي لدى دعبل الخزاعي والمتنبي. ففي هذا المجال يضج عالم الشاعر بالرفض، فقد يعبر عن رفضه بالهجاء أو السخرية أو التهكم. أما البعد الثاني فهو أيضا ينطلق من رفض الواقع لكن الشاعر يحاول أن يخلق عالمه البعيد عن صراع السياسة فيتجه إلى ما ينسيه الواقع والخمرة هي الملجأ. أما البعد الثالث فهو التنسك والزهد".[1]

أمام هذا الوضع سيركب ابن الحجاج مغامرة غير مسبوقة في الشعر، وسيبحر عبرها عكس تيار الشعر المعهود؛ مغامرة لم تكن تصدر عن مجازفة، وإنما انبثقت من وعي شعري اتضحت معالمه في مجموعة من الأبيات الشعرية وصف فيها ابن الحجاج طبيعة شعره ومواطن الجدة فيه؛ يقول واصفا شعره: (مجزوء السريع)

فإن شعـــــري ظريـــف من بابة الظرفـــــــــاء

ألذ معنـــــى وأشهـــى من استماع الغنـــــــاء [2]

فابن الحجاج صاحب طريقة في الشعر لم يسبق إليها، ولم يلحقه فيها أحد"؛ فلم ير كاقتداره على ما يرده من المعاني التي تقع في طرزه مع سلاسة الألفاظ وعذوبتها، وانتظامها في سلك الملاحة والبلاغة. وإن كانت مفصحة عن السخافة مشوبة بلغة الخلديين والمكدين وأهل الشطارة."[3] وكيف أنه كان عند الملوك والأمراء، والوزراء والرؤساء " مقبول الجملة غالي مهر الكلام، موفور الحظ من الإكرام والإنعام ".[4]

إن هذا النمط من الشعر حمل جديدا غير مألوف لدى الطبقة المثقفة في هذا العصر، فما هو مصدر هذه الجدة في شعر ابن الحجاج؟

سنحاول أن نتصيد الإجابة عن هذا التساؤل، مقتصرين على مظاهر تجديد الشاعر في أغراض الهجاء والرثاء والمدح من خلال تتبع نماذج شعرية أوردها الثعالبي في اليتيمة؛ وهي نماذج انتقاها من ديوان ابن الحجاج الضخم، وهذا الانتقاء يكاد يغطي الميادين التي طرقها الشاعر والموضوعات التي استهوته، ويعكس لنا طبيعة شخصيته وتناقضات عصره.

1. في الهجاء

لقد كان الشعراء القدامى يهجون خصومهم بالجبن وضعة النسب والبخل وما إلى ذلك من العيوب والمثالب، لكن ابن الحجاج لم يسر على منوال هؤلاء الشعراء، بل ارتضى لنفسه طريقة جديدة في الهجاء تقوم على تعداد القاذورات وإلحاقها بالخصوم، إمعانا في تحقيرهم وجعلهم مثار سخرية ومصدر نتانة؛ يقول هاجيا أحدهم قد جفاه بعد أن كان من أوفيائه:(مجزوء الكامل)

ولقد عهدتك تشتهـــــــي قربي وتستدعي حضـــــــوري

وأرى الجفا بعد الوفـــــــا مثل الفسا بعد البخـــــــور

يا خرية العدس الصحـــــــيـــــــح النيء والخبز الفطيـــــــر

في جوف منحل الطبـــــــيـــــــعة والقوى، شيخ كبيـــــــر

يخرى فيخرج سرمـــــــه شبرين من وجع الزحيـــــــر

يا فسوة بعد العشـــــــا بالبيض واللبـــن الكثـــــــير

وفطائر عجنت بلا الـــــــملح الجريش ولا الخميـــــــر

يا ضرطة الشيخ المبـــــــجـــــــل بين حسـاد حضـــــــور

يا ريح سرقين البغـــــــا ل يداف في بول الحميـــــــر

يا نتن رائحة الطبـــــــيـــــــخ إذا تغيـــر في القـــــــدور

يا عش بيض القمل فـــــــر خ في الســـوالف والشـــــــعور

يا بول صبيان الفطـــــــا م ويا خراهـــم في الحجـــــــور

يا بغض تدخين الجشـــــــا في الصوم من تخم السحـــــــور

يا حر قولنج البطـــــــو ن وبرد أعصاب الظهـــــــور

يا ذلة المظلوم أصـــــــبـــــــح وهو معـــدوم النصيـــــــر

يا سوء عاقبة التعـــــــقـــــــد عند تمشيـــة الأمـــــــور

يا كل شيء متعـــــــب متعقد صـــعب عســـــــير

يا حيرة الشيخ الأصـــــــم وحسرة الحـــدث الضـــــــرير

يا قعدة في دجلـــــــة والريح تلعب بالجســـــــور

يا قرحة السل التـــــــي هدت شراسيف الصـــــــدور

يا أربعاء لا تـــــــدو ربه محاقات الشـــــــهور

يا هدة الحيطان تنقـــــــض بالمعاول والمـــــــرور

يا قرحة في ناظـــــــر غلطوا عليها بالـــــــذرور

فتسلخت مع مايلـــــــيـــــــها في الجفون من البـــــــثور

يا خيبة الأمل الـــــــذي أمسى يعلل بالغـــــــرور

ياغلمة المتخـــــــدرا ت وراء أبواب القصـــــــور

يا ملتقى سعف الأيـــــــــــــــو ر على عراجين البظـــــــــــور

يا وحشة الموتـــــــــــــــى إذا صاروا إلى ظلم القبـــــــــــور

يا ضجرة المحموم بـــــــــــــالـــــــــــــــــــغدوات من ماء الشعيـــــــــر

يا شؤم إقبال الشـــــــــــــــتا ء أضر بالشيخ الفقـــــــــير

يا دولة الحزن التـــــــــــــــي خسفت بأيام الســـــــــرور

يا ضجة الصخب المصـــــــــــــد ع ذي التنازع والشـــــــرور

يا عثرة القلم المرشـــــــــــــــــــــــــش بين أثناء السطـــــــور

يا ليلة العريان غـــــــــــــــب عشية اليوم المطيـــــــــر

يا نومة في شمـــــــــــــــس آ ب على التراب بلا حصـــــير

يا فجأة المكروه فـــــــــــــي اليـــوم العبوس القمطـــــرير

يا نهشة الكلب العقـــــــــــــو ر ونكهة الليث الهصـــــور

يا عيش عان موثـــــــــــــق في القيد مغلول أسيـــــــر

يا حدة الرمد الـــــــــــــذي لا يستفيق من القطـــــور

يا حيرة العطشان وقـــــــــــــــــــــــــت الظهر في وسط الهجيـــر

من لي بأن تلقاك خـــــــــــــيـــــــــــــــــــل بني كلاب بلا خفيـــــر

وأرى بعيني لحمك المطـــــــــــــــــــــــبـوخ في نار السعيـــــــر

في الأرض ما بين الـــــــــــــسبا ع وفي السما بين النســـــور[5]

أوردنا هذا النص كاملا لأنه نموذج تمثيلي لطبيعة الهجاء عند ابن الحجاج؛ فهو غرض شعري سمح له بأن يبرر طبيعة شعره المبنية على البحث عن التجديد في الأغراض وفي محتوياتها وطرائق صياغتها؛ فالملاحظة التي يمكن تسجليها هنا، هي أن لهذه القصيدة نسبا لنص آخر من طبيعة أخرى؛ إنه نص المقامة الدينارية المشهورة لبديع الزمان الهمذاني(ت398هـ)، الذي يحكي فيه عن شخصين تهاجيا ليدرك أحدهما دينارا، فكان التباري بينهما؛ وكان كل واحد منهما يتفنن في إلصاق أقبح الصفات بالآخر، ومعلوم أن أبا الفتح الإسكندري في نهاية الحكاية ألقى الدينار بينهما دون أن يحسم في الفائز منهما؛ لأن المهاجاة بينهما كانت متساوية من حيث الصفات القبيحة والذميمة التي رمى بها كل واحد الآخر؛ وقد بنيت المهاجاة في المقامة بالصيغة نفسها التي صيغت بها هذه الهجائية لابن الحجاج. ما يدل على أن هذه الصيغة الهجائية ظهرت في القرن الرابع، فتداولها صاحب المقامات وتأثر بها ابن الحجاج في شعره.

وهذه الصيغة من الناحية التركيبية انبنت على التكرار، لكن هذا الأخير شكلي يخفي وراءه تنوعا في المضمون؛ فقد بنى الشاعر هذه القصيدة الهجائية على تعداد صفات قبيحة وعاهات مؤلمة ومواقف ساخرة وعلى قذرات شنيعة وأمراض فتاكة وأحاسيس

بغيضة؛ حتى يخيل للقارئ أن الشاعر قد أحاط بكل مصيبة وكل كرب وكل شيء مستقذر ليلصقه بالمجهو. وبعد أن أحصى هذه الأشياء كلها، لم يشف غليله إلا بالدعاء على هذا المهجو أن تفتك به الكلاب وتتوزع السباع لحمه في الأرض والنسور في السماء.

إن غيظ الشاعر كبير على المهجو، ويستفاد ذلك من هذا التعداد الطويل لهذه الصفات التي استقاها الشاعر من ميادين مختلفة ومتنوعة. وكأنه أطال هذه الصفات ليُطوق المجهو ويجعله تحت قبضة سهام هجوه ونقده.

والاعتماد على بلاغة التكرار من ناحية الصيغة وتعداد الصفات القبيحة والذميمة، مكن الشاعر من الإحاطة بموضوعه، وقد اختار لتأدية غرضه لغة سهلة وبسيطة، ووزنا شعريا خفيفا وهو مجزوء الكامل [متفاعلن متفاعلن متفاعلن متفاعلن]، وإذا ما أمعنا النظر في هذه الهجائية، نرى ابن الحجاج أعد لها عُدَّتها؛ فقد اختار بحرا من البحور الشعرية الذي غالبا ما تُنظم فيه الموضوعات القوية ذات النفس الطويل، لكنه تحايل على هذا البحر واستعمله مجزوء مشيرا إلى نقصان المجهو، فلقد استكثر عليه بحرا كاملا، ليفسح المجال لتوالي الصفات القبيحة، و القارئ للقصيدة يحس بأن الشاعر كان يطمح إلى إرداف صفات متتالية لا يتيحها له سوى وزن خفيف و قافية مكسورة إشارة إلى حرصه الشديد على كسر خصمه.

وقد تخفف الشاعر من كل المحسنات البلاغية حتى لا يثقل قصيدته بما لا فائدة فيه؛ فهو يريد أن يصل كلامه للمهجو عاريا بلا زخرف لفظي قد يضيع قوة الهجاء؛ فما ورد في القصيدة من تشابهات صوتية قد جاء عفوا، ومن غير تكلف، بل جاء بلاغا للوضعية التي كانت سببا لهذه الهجائية، والسبب معلن هو جفاء بعد وفاء؛ فهذا الجناس الناقص الذي ورد في البيت الثاني (جفاء – وفاء) يؤدي معنى ليس الهدف منه إضفاء الموسيقية؛ وإنما هو إشارة إلى عدم التجانس بين الشاعر والمهجو؛ فهما وإن كانا من قبل صديقين، فهذه الصداقة ناقصة نتج عنها جفاء بعد وفاء.

2. في الرثاء

كما سلف الذكر، لقد أحدث ابن الحجاج في الشعر العربي ما لا قبل له به؛ ويمكن التدليل على ذلك من خلال هذا النص الغريب الذي يحمل رؤية جديدة لطبيعة العلاقات بين الناس؛ فهناك بعض المواقف والأحداث تستدعي نوعا من الشفقة ونوعا من السند والمواساة، لكن نرى ابن الحجاج يسخر من هذه المواقف سخرية يتولد عنها الضحك في مواقف من الطبيعي أن يتولد عنها الحزن.

يقول في رجل سقطت امرأته من السطح فماتت: (بحر الطويل)

عفا الله إنها يوم ودعـــــــــت أجل فقيد في التراب مغيـــــــــب

ولو أنها اعتلت لكان مصـــــابها أخف على قلب الحزين المعـــــذب

ولكن رأت في الأرض أفعى مجـــدلا على قدر غرمول الحمار المشغـــب

فظنته أيرا و الظنون كـــــــواذب إذا أخبرت عن عام ما في المغيـــب

وأهوت إليه من يفاع ودونـــــــه ثمانون باعا في علو مصـــــــوب

فصارت حديثا شاع بين مصـــدق تحققه علما وبين مكـــــــذب

سعى الطمع المردى إليها بحـــــتفها و من يمتثل أمر المطامع يعطـــــب

فأعظم يا هذا لك الله ربهـــــــا وربك أجر الثكل في شـاة أشعـــب[6]

لقد عمد الشاعر في هذه القصيدة إلى السخرية من غرض الرثاء، و من الصورة النمطية التي ترسخت في المراثي؛ فهي مرثية ساخرة تعكس لا مبالاة الناس بآلام الآخرين، و لا مبالاتهم أمام الموت؛ إننا لا نشك في إنسانية ابن الحجاج، فموْقِفه هذا من المرأة التي سقطت من أعلى السطح وهلكت، ما هو إلا انعكاس لنظرة المجتمع – المشغول بهمومه – إلى الموت بنوع من البرودة واللامبالاة ، والأخطر من ذلك اتخاذ مثل هذا الموقف المهيب مجالا للسخرية؛ إذ إن هذا النص يعكس لنا مدى تردي القيم و الأحاسيس في ظل مجتمع متفسخ انغمس في اللذة الممنوعة و في الطمع حتى أخمص القدمين، فلم يعد تتحركه العواطف والأحزان؛ مجتمع قاس لا رحمة فيه.

إن هذا الإحساس الغريب، وهذه البرودة تجاه آلام الآخرين تظهر في المجتمعات الاستهلاكية كما هو الشأن في عصرنا الذي فترت فيه العلاقات الإنسانية، واستغرق الناس في همومهم الخاصة؛ هموم الذات ومشاغلها.

نص ابن الحجاج في هذه المرثية الساخرة يسعى إلى تشويش الصورة النمطية التي ترسخت لدى الناس حول غرض الرثاء، وتظهر سخريته من هذا الغرض، في أنه حافظ على القالب الشكلي الذي غالبا ما ينظم فيه وهو بحر الطويل الذي دأب الشعراء القدماء ينظمون فيه الموضوعات التي تتطلب الجدة والرصانة؛ لكن ابن الحجاج مارس سخريته المعهودة ونظم في هذا البحر موضوعا يجعل حدثا مأساويا أمرا مثيرا للسخرية؛ فالمرأة في القصيدة لم تسقط، و إنما ارتمت على شيء ظنته أَيْراً، وحتى يكتمل المشهد، ضمن الشاعر قصيدته حكاية مشهورة عن أشعب الطماع؛ وهي حكاية شاته الأكثر طمعا منه؛ فقد" قيل لأشعب: هل رأيت أطمع منك ؟ قال : نعم ، شاة كانت لي على سطح فنظرت إلى قوس قزح فظنته حبل قت ، فأهوت إليه واثبة، فسقطت من السطح فاندقت عنقها".[7]

نخلص إذن، إلى أن ابن الحجاج يقلب الأغراض الشعرية ويحاول السخرية من تلك الأغراض المسكوكة والمكررة التي بليت بالتكرار والاجترار؛ ها هو يدخل فيها عناصر مشوشة ليقوض مرتكزاتها؛ فإذا رأيناه في المواساة يجعلها سخرية، وفي التعازي يقلبها تهكما، ويجعل من الموقف المأساوي موقفا مضحكا، فها هو أيضا يأتي إلى غرض المدح فيخرجه عن إطاره الذي ارتضاه له الشعراء القدامى.

3. في المدح

إذا كان الشاعر العربي يمدح الخليفة بصفات هي أقرب إلى الأسطورة منها إلى الواقع، وإذا كان المدح يرتكز بالأساس على الصفات المعنوية دون الجسدية، فإن ابن الحجاج سيقصر مدحه للممدوح على الصفات الجسدية من جمال الوجه وقوة الفحولة؛ فينزل بالمدح من عليائه إلى واقعيته التي تجعل الممدوح شخصا آدميا عاديا لا هم له إلا مطاردة النسوان في أقبية القصور.

يقول في مدح بختيار:(مجزوء البسيط)

فديت وجه الأمير من قمـــــــــر ... يجلو القذى نوره عن البصـــــــــر

فديت من وجهه يشككنـــــــــي ... في أنه من سلالة البشـــــــــر

إن زليخا لو أبصرتك لمـــــــــا ... ملت إلى الحشر لذة النظـــــــــر

ولم تقس يوسفا إليك كمـــــــــا ... نجم السهى لا يقاس بالقمـــــــــر

وكان يا سيدي قبـــــــــاك إذا ... هربت منها ينقد من دبـــــــــر

بل وحياتي لو كنت يوســـــــــفـها ... لم تك من تهمة العزيـز بـــــــري

لأنني عالم بـأنك لـــــــــــــــو ... شممت ريا نسيمـها العطـــــــــر

سبقتها و انزبقـت تتبعـــــــــــها ... ما بين تلك البيوت والحـــــــجر

ولم تزل بالكـدين تقصرهـــــــــــا ... من قبل وقت العشا إلى الســـحر

وقد علمـــنا بأن سيدنا الـــــــــــ ... أمير ممن يقـول بالبظـــــــــــر

و لم تكن تلك تشتـكي أبـــــــدا ... ما كان من يوسف من الحـــــذر

طبـــعك كالماء في سهولـــــــــته ... لكن أبو الزبرقان من حجـــــــر

إن الملوك الشـــباب ما خـــــــلقوا ... إلاصلاب الفياش و الكمـــــــــر[8]

فها نحن نرى كيف يقلب ابن الحجاج موضوع المدح وينزل به إلى الحديث عن فحولة الممدوح وعن ميوعته وعن عدم عفته؛ فقد عمد إلى قصة يوسف وزليخا وحَوَّرها، فجعل ممدوحه بطل القصة، لكن الممدوح لا صلة له بالعفة اليوسفية، بل هو متهتك يجري وراء لذته؛ لأن شغله الشاغل هو ملاحقة النساء، فهاهنا نرى الشاعر قد حوَّر غرض المدح إلى أمور منافية للذوق السليم والطبع القويم.

خاتمة

في نهاية البحث – وبعدما حللنا مجموعة من النماذج الشعرية التمثيلية في شعر ابن الحجاج –نخلص إلى أن ابن الحجاج كانت لديه القدرة على تمثيل ثقافة عصره أيما تمثيل، وما أنتجه فيها من أحداث، فجاء شعره مليئا بأصداء أجناس أدبية أخرى؛ كالمقامات فملأه بلغة الشطار والمتسولين، و من ثم فإن الشاعر عمق مبدأ الشعر في الأدب العربي واتخذه باعتباره سلاحا يواجه به عصرا مضطربا ، ولكي يعمق هذا الإحساس أكثر عمد إلى ممارسة السخرية من الأغراض الشعرية الموروثة كالهجاء والرثاء والمدح ، فقلب مضامينها التي ترسخت عبر تاريخ طويل في الشعر العربي. ومن هنا نفهم لماذا يقال: إن ابن الحجاج في الشعر في درجة امرئ القيس وانه لم يكن بينهما مثلهما؟ فامرؤ القيس هو أول من قصد القصيد ووضع الأسس الشعرية العربية، وابن الحجاج هو أول من قلب تلك الأسس ووظفها توظيفا آخر يستجيب لرغباته وشروط عصره.

الهوامش:

[1] – ديوان ابن لنكك البصري تحقيق زهير غازي زاهد، منشورات دار الجمال، كولونيا –ألمانيا، ط1، 2005م، ص –ص: 7، 8.

2 – اليتيمة، ج3، ص: 31.[2]

3 – المصدر نفسه، ج3، ص:30.[3]

4 – المصدر نفسه، ج 3، ص:30.[4]

5 – –اليتيمة، ج3، ص–ص–ص: 35–36–37.[5]

6 –اليتيمة، ج3، ص–ص: 46–47.[6]

7 – اليتيمة، ج3، ص: 46.[7]

8 – اليتيمة،ج3،ص–ص:45–46.[8]